الفصل التاسع

خواطر فى ليلة عاصفة (١)

هذه خواطر شاب يعيش فى مدينة كبيرة ، قضى أمسيته مع رفقائه وعاد بعد منتصف الليل إلى منزله ، يتلمس طريقه ، ويحس بالوحدة والسأم ، وذكريات الماضى تتوارد الى خاطره ، ثم تتزاحم وتتقاتل فى سرعة خاطفة .

« إذ ينبعث من الذاكرة كل ما هو سام وجاف
أمور متزاحمة ملتوية ؛
كغصن بان مال على الشاطئ
الفاكهة الملساء قد التهمناها . والقوم قد تهذبوا
كأن العالم قد أفصح
عن مكنونات هيكله ،
ذلك الهيكل الصلب بلونه الأبيض
فى فناء المصنع زنبرك مكسور .
الصدأ العالق بالشكل الذى خلفته القوة من ورائها
صلباً مجعداً ومتوثباً »(٢) .

---

(١) "Rhapsody on a Windy Night"

(٢) "The memory throws up high and dry
A crowd of twisted things;
A twisted branch upon the beach
Eaten smooth, and polished
As if the world gave up
The secret of its skeleton,
Stiff and white.
A broken spring in a factory yard,
Rust that clings to the form that the strength has left
Hard and curled and ready to snap."
Ibid., "Rhapsody on a Windy Night," pp. 24-25.

هذه الخواطر ليست مترابطة . فهى تتسم بالنزعة السيريالية فى مضمونها وجوهرها ، تنبع من أعماق اللاشعور ، وتعبر تعبيراً صادقاً عن مكنونات النفس وعن الرغبات الدفينة التى كثيراً ما تغوص فى أغوار العقل الباطن لتستقر هنالك إلى أن تحين الفرصة فتهم بالاندفاع إلى الشعور . فهى لهذا ترجمة أمينة لميولنا الغريزية التى لا تخضع لسلطان العقل أو الحكمة المنطقية من مقدمات أو فروض ونتائج لازمة عنها ، أى أنها لا تخضع لقانون الحتمية . وهى فى فطريتها بعيدة كل البعد عن تحكم العرف والتقاليد الاجتماعية . فهى تنقلنا إلى محيط مكتظ بالانفعالات المتضاربة ، تزدحم فيه الذكريات ، وتختلط فيه الخواطر العابرة التى تنتقل بنا من الفاكهة الغضة إلى العالم الرحب الفسيح المليء بالغموض والأسرار ، ومن المصنع إلى القوة الهائلة المحركة له ، وهكذا :

« تعاوده الذكريات
عن الجيرانيوم [١] الجافة وقد غابت الشمس
وعلقت الرمال بالفجوات
وانبعثت رائحة أبو فروة من الطرقات ،
ورائحة السيدات من الحجرات ذات النوافذ الخشبية ،
والسجاير فى الممرات
والكوكتيل فى الحانات »[٢] .

كل هذا والشاب يتابع مسيره فى خطى متثاقلة نحو مسكنه ، فترتسم أمام

---

(١) نبات الخبيزة الإفرنجية .
(٢)

"The reminiscence comes
Of sunless dry geraniums
And dust in crevices,
Smells of chestnuts in the streets,
And female smells in shuttered rooms,
And cigarettes in corridors
And cocktail smells in bars."
Ibid., p. 26.

مخيلته هذه الصور المتلاحقة التى تعكس وراءها سلسلة طويلة من المرئيات ، وتبين لنا فى لمحات خاطفة ذلك القطاع الواقعى المتصل بحياتنا اليومية وخبراتنا العادية . وهذه الخبرات الواقعية من حفلات الكوكتيل والسجاير والنساء والزهور وغيرها قد عرفها هذا الشاب عن قرب ، فهو يعيش وسط المدينة ، لا فى عزلة مقيتة كما رأينا فى تعرضنا لشخصية بروفروك ، بل إنه يحيا فى تفاعل إيجابى مع كل ما يحيط به من ألوان المتعة الحسية . وما هى إلا لحظات حتى يصل إلى منزله قبيل مطلع الفجر ، ويتصور أن :

« المصباح يخاطبه قائلاً
الساعة الآن الرابعة
ها هو رقم المنزل على الباب .
يا لها من ذكريات !
المفتاح معك ؛
والمصباح الصغير قد ألقى دائرة ضوئية على درج السلم .
هلم بالصعود .
فالفراش معد ، وفرشاة الأسنان معلقة على الحائط ،
وعليك أن تخلع نعليك عند الباب ، ثم تنام ، وتستعد لملاقاة الحياة»[1].

وهكذا يستقبل يومه التالى ، ويعاود نفس الكرّة فى روتينية مملة ، تتقاذفه الحانات ، ويفرغ من هذا الكأس ليلتهم غيره عله ينسى أو يتناسى كل ما من

---

(١)

"The lamp said,
'Four o'clock,
Here is the number on the door,
Memory !
You have the key,
The little lamp spreads ring on the stair.
Mount.
The bed is open; the tooth-brush hangs on the wall,
Put your shoes at the door ,sleep, prepare for life."
Ibid.

obeikandl.com

شأنه تعكير صفوه وسط خضم هذه المدن الصناعية الكبيرة التى تموج بضجيج الآلات وصخب المارة من السكان ، حتى إذا ما استرد مشاعره وأفاق إلى نفسه ثانية ، عاوده الشوق والحنين إلى ذكريات الماضى . ويخرج من هذا المعترك ليصدم بالحقيقة الراهنة من التكرار البغيض لحياته اليومية . فيقف أمام هذه الحقيقة دون حراك ، إذ أنه لا يملك تغييرها وليس فى مقدوره أن يحيد عنها قيد أنملة .

وتعلل لنا هذه القصيدة ذلك الترابط الوثيق بين الفرد والمجتمع . وينم هذا الترابط عن وجود مشكلات شتى تنعكس بدورها على حالات الأفراد النفسية والاجتماعية ، فالمؤثرات البيئية تمثل خطراً جسيما فى تشكيل الأفراد والجماعات ، هذا بالإضافة إلى الانحرافات المتعددة الناتجة عن سوء التوجيه مما أدى إلى تراكم العقد النفسية وتعقد الشخصية إلى أبعد حد .

* * *

الفتاة الباكية الصغيرة[١]

بعد القصيدة السالفة يترك إليوت ، ولو إلى حين ، هذا الجو المكفهر بعقده وانحرافاته لينقلنا إلى عالم الحب والفن فى قصيدته التى أطلق عليها اسم « الفتاة الباكية الصغيرة » .

وتدور أحداث هذه القصيدة حول تمثال فتاة باكية فى إحدى متاحف إيطاليا كان إليوت قد سمع عنه ، ولما زار إيطاليا سنة ١٩١١ حاول أن يشاهد هذا التمثال وبحث عنه طويلاً دون جدوى . إن الفتاة تبكى لأن حبيبها سيبتعد عنها ، فى الفراق لوعة وأسى . وها هو الموقف كما تخيله إليوت :

« وهكذا سيتركها حبيبها
وهى واقفة بائسة
سيفارقها
كما تفارق الروح الجسد وتتركه مهلهلاً مرضوضاً
أو كما يترك العقل ذلك الجسم الذى عاش فى كنفه .
سأحاول أن أجد طريقة ميسورة
فى حذق لا يجارى ؛
طريقة نتفهمها معاً ،
لا تتعدى الابتسامة البسيطة وتشابك الأيدى بعد فقدان الثقة »[٢] .

---

(١) "La Figlia Che Piange"

(٢) "So I would have had him leave,
So I would have had her stand and grieve,
So he would have left
As the soul leaves the body torn and bruised,
As the mind deserts the body it has used.
I should find
Some way incomparably light and deft,
Some way we both should understand,
Simple and faithless as a smile and shake of the hand."
Ibid., "La Figlia Che Piange," p. 31.

إن إليوت يحاول فى ثنايا هذه الأبيات أن يجعل للعقل مكاناً فى تصرفاتنا العاطفية فهو لا يؤمن بذلك الاستسلام المطلق لحدة الوجدان والاستجابة الكلية لرغباتنا القلبية ونزواتنا الشعورية . إنه يؤمن بالمشاركة الوجدانية المبنية على الفهم المتبادل ، ولا يتعدى ذلك الابتسامة الرقيقة وتشابك الأيدى فى غير ضعة . ومن ثم يستطرد الشاعر قائلاً :

« لقد أدارت الفتاة ظهرها ، وكان الجو خريفاً ،
وتملك منظرها هذا على مخيلتى أياماً عديدة ،
أياماً متتالية وساعات طوالاً !
وقد انساب شعرها على ذراعيها وهى ممسكة بالورود .
ترى كيف قضت وقتها مع صاحبها !
او كان أمرها كذلك لفقدتُ لذة الإيماءة والقفول .
هذه التأملات ما زالت تدهشنى أحياناً
بين حيرتى فى منتصف الليل وراحتى وقت الظهيرة »[1] .

هذا هو المنظر كما تخيله الشاعر وكما علق بذهنه مدة أيام متتالية ؛ فملك عليه لبه وفؤاده ، ومصدر دهشته هو أن سلوكنا قد يبدو غريباً شاذاً أحياناً . فالفتاة قد أدارت ظهرها فى إحجام دون مبرر بالرغم من بكائها لفراقه .

* * *

(١) "She turned away, but with the autumn weather
Compelled my imagination many days,
Many days and many hours :
Her hair over her arms and her arms full of flowers.
And I wonder how they should have been together !
I should have lost a gesture and a pose.
Sometimes these cogitations still amaze
The troubled midnight and the noon's repose".
Ibid.

بعد هذه القصيدة المليئة بحيوية الشباب ومرحه وأحزانه وانفعالاته الصاخبة يتحول إليوت إلى نقد المهيمنين على الدين في قصيدتيه « عجل البحر »[١] و « صلاة مستر إليوت في صبيحة يوم الأحد »[٢] ، إذ يقول :

« إن عجل البحر يقضي يومه في نعاس ؛
ويبحث عن قوته بالليل ؛
هكذا تتحقق الإرادة الإلهية بطريقة خفية —
لكن الكنيسة تطعم وهي تغط في سبات عميق »[٣].

إن هذا الحيوان يبحث عن قوت يومه بغض النظر عن الوقت الذي يقوم فيه برحلاته وتجواله. أما معظم رجال الكنيسة فيقدم لهم الطعام والشراب دون أي عناء. لقد شغلهم جريهم وراء المادة عن افتقاد النفوس الضالة. ولسنا نذهب إلى مدى بعيد إذ في فناء الكنيسة :

« يعيش النحل على امتداد سور الحديقة
يعرق بشعيراته وبطونه
بين أعضاء التذكير والتأنيث
هذا هو العمل المحبب لشغالة النحل »[٤].

فالنحل يطير بين الزهور ويجمع رحيقها ويحوله إلى عسل شهي ، أما غالبية رجال

---

(١) "The Hippopotamus"
(٢) "Mr. Eliot's Sunday Morning Service"
(٣) "The hippopotamus's day
Is passed in sleep; at night he hunts;
God works in a mysterious way —
The Church can sleep and feed at once."
Ibid., "The Hippopotamus," pp. 49-50.
(٤) "Along the garden-wall the bees
With hairy bellies pass between
The staminate and pistillate,
Blest office of the epicene."
Ibid., "Mr. Eliot's Sunday Morning Service," p. 56.

الدين فقد شغلتهم أمور الدنيا عن مهمتهم الأصلية وهى الخدمة الروحية

* * *

بير بانك ومعه بايديكار : بليشتان ومعه سيجارته[١] .

كان طبيعى بعد القصيدتين السالفتين أن يكتب إليوت عن مشكلة تغلغل المادية فى النفوس ، وما أعقب ذلك من ضعف المستوى الخلقى ، وفقدان القيم الروحية فى المجتمع الحديث . وفى قصيدته التى أطلق عليها « بير بانك ومعه بايديكار : بليشتان ومعه سيجارته » يضيف إليوت إلى ما تقدم اضمحلال النزعات الفنية فى عصرنا الحاضر متخذاً البندقية مثالاً له فى هذا المضمار . فبعد أن كانت البندقية تزخر بالفنانين العظام ، أصبحت مركزاً للتجارة والسياحة وموطناً للعشاق الذين يقضون أوقاتهم فى التنقل بين خرير جداولها ، فها هو :

« بير بانك قد عبر القنطرة الصغيرة
ونزل فى الفندق الصغير ؛
ووصلت إليه الأميرة فولوبين ،
وقضيا وقتهما سوياً إلى أن وقع فى حبها »[٢] .

وبير بانك هذا سائح أمريكى قدم إلى البندقية ليقضى فيها بعض الوقت فى فندق صغير يطل على إحدى بحيراتها حيث الجندولا تمخر العباب . وبالرغم من أنه وقع فى حبائل الأميرة فولوبين إلا أنها لم تستمر معه طويلاً إذ استهل حديثه معها عن الفنون وقيمتها فى تربية الذوق السليم ، فضاقت به ذرعاً وتعلقت بشخص آخر يدعى السير فيرديناند كلين[٣] الذى يفوق بير بانك فى غناه

---

(١) "Burbank with a Basedeker :
(٢) Bleistein with a Cigar."
"Burbank crossed a little bridge
Descending at a small hotel;
Princess Volupine arrived,
They were together, and he fell.'
Ibid., "Burbank with a Baedeker : Bleistein with a Cigar," p. 40.
(٣) Sir Ferdinand Klein.

فهو يهودى يدخر الكثير من الأموال .

أما بليشتان فهو تاجر متنقل لا يهمه من البندقية وغيرها سوى رواج بضاعته ، وهو على النقيض من بير بانك لا يعرف شيئاً عن الفن بالرغم من أنه قضى وقتاً طويلاً فى البندقية ، فهو يمثل حب المال بأجلى معانيه . وفى الطرف الآخر نجد بير بانك صاحب القيم والمبادئ ، وإن كان قد فشل فى حبه فذلك مرده إلى سوء تصرفه .

وأمام الجشع المادى الذى يتركز فى السير فيرديناند كلين

« يتلاشى الدخان المتصاعد من شمعة

الزمن »[1] .

وهذه الشمعة آخذة فى الزوال بلا محالة وبخاصة تحت ضغط هذا الصراع المرير بين القيم المختلفة .

• • •

(١) "The smoky candle end of time Declines."
Ibid.; p. 41.